سلسلة كتب تاريخية

(١)

البركان يفور

الاستاذة

ايريس حبيب المصرى

سلسلة قصص تاريخية

(١)

البركان يفور*

كنيسة مارجرجس باسبورتنج

* « مأخوذ عن كتاب قصة الكنيسة القبطية » الكتاب الثانى للإستاذة ايريس حبيب المصرى

البركان يفور

فترة حالكة

كانت فترة السلام التى سادت مصر عند تولى القاسم بن عبيد الله الحكم قصيرة الأمد . ذلك أن هذا الوالى استهل حكمه بالمسالمة ولكنه لم يلبث أن نسى الرفق واللين واندفع فى سياسة العنف والقوة متناسياً نصيحة الخليفة هشام . على أن قسوته لم تظهر إلا بعد نياحة الأنبا ثيئودورس ، إذ قد شاء المولى تعالى أن يضم البابا الجليل إلى داره الأبدى قبل أن يتمادى القاسم فى استبداده . فكانت مصر بعد نياحة الخليفة المرقسى فريسة لقوى ثلاثة أحلاها علقم : هى القحط والوباء وبطش القاسم . فإن هذا الوالى لم يرحم الشعب المسكين الذى استبد به الوباء وضيّق عليه القحط الخناق فتشدد فى المطالبة بالجزية إلى حد أنه كان يحكم بالجلد علناً على كل من لا يؤدى المال المفروض عليه .

وفى تلك الفترة المليئة بالأهوال لم يتمكن الأساقفة والأراخنة من الاجتماع للتشاور فى من يخلف الأنبا ثيئودورس على السدة المرقسية ، وذلك لعدم توافر الأمان اللازم للاجتماع والتشاور . فكان كل مسئولٍ منهم منشغلاً بالعناية بشعبه الجريح المضطرب .

الأديرة منارة ساطعة وسط الظلام

ومن مظاهر عناية الآب السماوية بكنيسته أنه على الرغم من كل هذه البلايا فقد ظلت الأديرة مليئة برجال الله القديسين الذين كرّسوا حياتهم للضراعة من أجل اخوتهم المعذبين فى العالم .

وكان الدير الذى يحمل اسم السيدة العذراء فى منطقة تنيس إحدى هذه المنارات الساطعة ، وفيه عاش رهبان تجملوا بالفضائل المسيحية ومن بينهم الناسك ابيماخوس الذى بدأ حياته الرهبانية فى دير الأنبا مكارى الكبير والذى استحق أن ينال كرامة الأسقفية بعد ذلك . وقد عاش فى هذا الدير أيضاً الأنبا مينا الذى اختير لأسقفية ممفيس وأخوه فى الرهبنة القس يعقوب وغيرهما من الرهبان الصالحين .

تبدل الوالى والاجتماع للتداول فى انتخاب البابا الاسكندرى

ووسط هذه الفترة الحالكة ظلت السدة المرقسية شاغرة وبعد انقضاء ما يقرب من ثلاث سنين رأى الثيئودوسيون [1] أن يجتمعوا ويتشاوروا لكى يرشدهم الله إلى الربان اليقظ

---

(١) نسبة الى الأنبا ثيئودوسيوس البابا الاسكندرى الـ ٣٣ - أنظر ص ١٣٩ - ١٥٢ من كتاب قصة الكنيسة القبطية الكتاب الثانى .

الذى يمسك بدفة الكنيسة ويجمع كلمة المؤمنين . فتقابلوا وقصدوا إلى دار الولاية ليبلغوا القاسم رغبتهم فى انتخاب راعيهم الأول . ولكنهم - حين وصلوها - لم يجدوه وعلموا أن الخليفة قد استدعاه على عجل مما اضطره إلى مغادرة الفسطاط فى حراسة الجند الذين اقتادوه إلى الخليفة . فلم يشأ الأساقفة والأراخنة أن يضيعوا وقتاً أكثر مما ضاع وجدّوا السير فى أثر القاسم ولحقوا به فى مدينة بلبيس وأعلموه بالسبب الذى جاءوا من أجله . والعجيب أن القاسم - مع كونه تحت حراسة الجند ومع علمه بأنه مغضوب عليه من الخليفة - ظل على تعسّفه ، فرفض أن يسمح للأساقفة والأراخنة باجراء الانتخاب . وعندها التفت الأنبا ثيئودورس أسقف بابلون إلى الأنبا مويسيس أسقف أوسيم وقال له : « تأمل يا أبى سلوك هذا القاسم والشر الذى يلازمه والذى زاد على كل ما رأينا وما سمعنا » .أجابه الأنبا مويسيس : « أغفر لى يا أبى لأنه إن عاد القاسم مصر ثانية فلا يكون الله تعالى قد تحدث على فمى أنا الخاطئ » .

ولقد تحققت كلمات هذا الأسقف القديس إذ انتهى الأمر بخلع القاسم وتعيين حفص بن الوليد مكانه . ولما وصل الوالى الجديد إلى مصر قابله الأساقفة والأراخنة ورجوا منه أن يأذن لهم بالاجتماع للتشاور فمنحهم الاذن لساعته .

التشاور عشرة أيام دون جدوى

وفرحـــوا بهذا التصريح المباشر فذهبوا على الفور إلى كنيـــسة الأنبا شنودة ببابلون حيث صلوا ثم جلسوا فى صمت وبعـــد فترة قصيرة التفت أسـقف اثمى إلى الفيوم وسأله : « ما رأيك يا أبى فى الموضوع الذى اجتمعنا بسببه ؟ » أجابه : « المرء فى التفكير والرب فى التدبير . وإنى لواثق تمامً بأن الله تعالى سيلهمنا اختيار الصالح من الرهبان . وأن القديس مرقس نفسه سيشترك معنا فى الانتخاب » . وحين سمع المجتمعون هذه الكلمات استبشروا خيراً وقالوا بصوت واحد : « ليصنع ربنا والهنا ومخلصنا يسوع المسيح ارادته فينا » . ثم قرروا الانصراف على أن يعودوا للاجتماع فى اليوم التالى . واستمروا عشرة أيام يجتمعون ويصلون ثم ينصرفون بسلام دون الوصول إلى نتيجة .

وفى اليوم الحادى عشر اقترح بعض المجتمعين اسم راهب لم يوافق عليه البعض الآخر . فأخذوا يتبادلون النقاش حول صلاحية الراهب المقترح ثم احتدم الجدال دون أن يقتنع فريق برأى الآخر . وبدا كأنهم سينصرفون كما فعلوا فى الأيام السابقة من غير أن يصلوا إلى غايتهم المنشودة وكأن اجتماعاتهم لا تستهدف غير الجدل ! وعندها قال واحد من الجمع : إن لم يحضر اجتماعنا أسقفا أوسيم وترنوط فلن نصل

إلى حل صحيح لموضوعنا .

حضور الانبا مويسيس ومناداته بالصوم والصلاة

وكان الأنبا مويسيس شيخاً إذ ذاك . ولم تكن السنون وحدها هى المسئولة عن ضعفه بل كان المرض حليفاً أيضاً ، فرأى أن يقضى بضعة أيام فى دير نهيا للاستشفاء . فلما جاءه رسل المؤمنين المجتمعين فى كنيسة الأنبا شنودة رأى أن يتحامل على نفسه ويلبى الدعوة لأهمية الموضوع . ولكنه لمرضه لم يستطع أن يعتلى ظهر الدابة التى أحضروها له . فأحضر له بعض أبنائه نقّالة وضعوا عليها مرتبة سميكة تقيه الألم . فاستلقى عليها ثم حملوه إلى بابلون إلى كنيسة الأنبا شنودة . وحين وصل الأنبا مويسيس وجلس فى صدر الكنيسة وجد أن الجدال احتدم بين المجتمعين فقال لهم : « إننا لن نصل إلى حلٍ يرضى الجميع إلا بالصوم والصلاة فى عزم وحرارة لذلك أرى أن تنصرفوا الآن . وحالما يصل كل منكم إلى بيته ينقطع للصوم والصلاة مدى الأربع وعشرين ساعة التالية . وغداً نعود جميعاً إلى هذا المكان المقدس فى مثل هذه الساعة . وآمل أن يكون الله تعالى قد ألهمنا النتيجة الصحيحة استجابة لضراعتنا » . فحسن هذا القول فى أعين الجميع وأنصرفوا بسلام .

الاجماع على انتخاب الراهب ميخائيل من دير الانبا مكارى الكبير

وفى الليلة المكرسة للصلاة تنبه أحد شمامسة الأنبا مويسيس من نومه ، واقترب من فراش هذا الأسقف العظيم فوجده صاحياً فقال له : « اغفر لى يا أبى . فقد أوحى إلىّ ملاك الرب أن أخبرك بأن الراهب المستحق لهذه الكرامة العظمى هو ميخائيل المتنسك بدير الأنبا مكارى الكبير» . أجابه الأنبا مويسيس على الفور : حقاً إن ملاك الرب هو الذى أوحى إليك بهذا الاقتراح ، لأننى أعرف هذا الراهب وأعرف ما تجمل به من مزايا » .

وفى اليوم التالى اجتمع الأساقفة والأراخنة فى كنيسة القديسين سرجيوس وواخس [1] . ولما اكتمل جمعهم قام أحدهم وأقترح اسم الراهب ميخائيل قبل أن يعرف ما دار بين الأنبا مويسيس وشماسه . فلما تردد اسم هذا الراهب من فم إلى فم وقف الانبا مويسيس وأعلن للجميع ما رآه شماسه فى الليلة السابقة . وعندها هتف الجميع « أكسيوس » ثلاث مرات . وفى الحال انتدبوا بعضاً منهم لمقابلة حفص الوالى والاستئذان منه في الذهاب إلى برية شيهيت ومنها إلى

---

(١) هى الكنيسة الشهيرة باسم « أبى سرجة » من الكنائس الأثرية ببابلون (مصر عتيقة)

الاسكندرية لاجراء المراسيم الكنسية التقليدية . فمنحهم هذا الوالى التصريح على الفور ، فخرجوا من داره قاصدين إلى برية شيهيت لساعتهم .

تجلى العناية الالهية فى انتخاب هذا الراهب

وبينما كان الأساقفة والأراخنة يتشاورون فى أمر الانتخاب ، كان رؤساء الأديرة والرهبان يتشاورون فى أمر الجزية الباهظة التى كان القاسم قد فرضها عليهم . فرأوا أن خير وسيلة هى أن ينتدبوا بعضا منهم ليذهبوا ويقابلوا حَفص بن الوليد الوالى الجديد ، ويتظلموا إليه . وبالفعل اختاروا مندوبيهم - وكان بينهم الراهب ميخائيل الذى كان قد وقع عليه الاختيار ليجلس على الكرسى المرقسى الشاغر . وحدث أنه فى اللحظة التى همّ وفد الرهبان فيها بالخروج من الدير أن ألتقى بالوفد الآتى من الفسطاط ليستصحب الراهب ميخائيل إلى الاسكندرية . وقد فرح مندوبو الأساقفة والأراخنة حينما وجدوا مختارهم بين نواب الرهبان . ومن ثم سار الوفدان معاً إلى الفسطاط وهم يترنمون بالمزامير والتسابيح الكنسية المناسبة . ولما وصلوا إلى دار الولاية وقابلوا حَفصا أعلموه بما جرى . فتفرس فى الراهب ميخائيل بضع دقائق ثم قال « حقاً إن هذا الرجل اختاره الله ليرعاكم ، فخذوه واذهبوا به بسلام » .

الذهاب الى الاسكندرية لرسامته خليفة لمار مرقس

وفى اليوم التالى ركب الجميع مركباً قاصدين إلى الاسكندرية . وبينما كانت المركب تنساب فوق مياه النيل ، كان الشعب يخرج فى جموع متلاحقة على شاطئيه لتحية المختار للسدة المرقسية . بل لقد اضطر قبطان المركب إلى إيقافها أكثر من مرة ليمكن الجماهير من تأدية تحيتهم حسب ما يرغبون . وقد انتهز بعض المؤمنين فرصة رسوا المركب لينزلوا فى أوسيم طلباً للأنبا مويسيس الذى كان قد عاد إلى مقر رياسته حالما استقر الرأى على انتخاب الراهب ميخائيل . وكان لهم قريب مصاباً بداء الفالج مدة خمسة عشر عاماً . فحملوه إلى الأسقف القديس . وحين اقتربوا من رجل اللّه صرخ المريض : « ارسم علىّ علامة الصليب ياأبى مويسيس . ارسمها فقط وأنا أؤمن أنى سأشفى » . وعندها رسم الأنبا مويسيس علامة الصليب على رأس المريض ثم نفخ فى وجهه فقام لساعته ومشى ، وأخذ يسبّح اللّه الذى يمنح قديسيه المقدرة على اجراء الآيات والعجائب .

ثم أنضم الأنبا مويسيس إلى الركب البابوى ، وساروا إلى الاسكندرية فقابلهم الشعب هناك فى جموع متدفقة وعلى رأسهم الكهنة والشمامسة وقد حملوا الأناجيل والشموع والمباخر والصلبان ، واتجهوا جميعاً فى موكب رائع نحو الكنيسة

المرقسية . وما كاد الموكب يخطو بضع خطوات حتى انهمر المطر مدراراً . وكانت قد انقضت سنتان لم ينزل خلالهما إلا القدر الضئيل من المطر . فتهلل الشعب لهذه الظاهرة إذ عدها علامة الرضى من رب الكنيسة على الراهب المختار .فازداد التهليل وارتفع الهتاف ، ولما وصلوا الكنيسة قام الاساقفة برسامة الراهب ميخائيل، فأصبح الخليفة السادس والاربعين لرسول المسيحية فى ديارنا المصرية سنة ٧٣٥م (سنة٤٥١ش)

فوضى واضطهاد

ولقد كانت السنة الاولى لباباوية الأنبا ميخائيل الأول مليئة بالعسف والضيق . ذلك أن أسامة بن يزيد متولى الخراج فرض ضرائب باهظة على المصريين وضاعفها على القبط . وبين الأمثلة على مغالاته فى ابتزاز أموال الشعب المسكين أنه فرض ضريبة مقدارها عشر دنانير على كل من ينتقل من بلد إلى آخر عن طريق النيل . وكان عاتياً فى الاستيلاء على الضرائب إلى حد أن أرملة كانت مسافرة فى مركب ذات يوم ومعها ابنها . وحدث أن أراد ابنها هذا أن يستقى ماءً من النيل . فخطفه تمساح على مشهد من جميع الركاب دون أن يستطيع أحدهم انقاذه . وكانت التذكرة التى تثبت أنها دفعت الضريبة فى جيب ابنها ساعة أن خطفه التمساح . فلما وصلت إلى البلد الذى تقصد إليه طالبها أعوان أسامة بن يزيد

بالضريبة . وعبثاً حاولت أن تقنعهم بأنها دفعتها إذ قد أصروا على أخذ المبلغ منها ، غير مبالين بحزنها على فقد ولدها وبفقرها الذى اضطرت معه الى بيع شئ مما عندها لتدفع الضريبة المفروضة مرة ثانية . وكان هذا التعسف فى الاستيلاء على المال بدعوى أنه ضريبة واجبة الأداء سبباً فى أن ينسى بعض القبط ولاءهم لمسيحيتهم ، فأنكروها ليفرزوا بالاعفاء من دفع المال الذى حتمه عليهم أسامة بن يزيد [1] . وقد امتلأ قلب الأنبا ميخائيل الأول حزناً وغماً حينما واجه هذه الخيانة من هولاء الأبناء الجاحدين ، فلم يجد أمامه وسيلة للمحافظة على شعبه غير الصلاة . وعلى ذلك قصد هو وبعض الأساقفة إلى برية شيهيت حيث انقطعوا للصوم والصلاة ضارعين إلى الآب السماوى أن يتدارك المؤمنين بمراحمه ويرفع عنهم الجور والاستبداد فاستجاب الله تعالى لهذه الضراعة الحارة ،وهيأ الفرج إذ قد وصل الأمر من الخليفة مروان الثانى برفع يد أسامة وبتعيين حَسّان مكانه . وقد امتاز حسان هذا بالحكمة حتى أن معاصريه شبهوه بالملك سليمان بن داود . وقد بدت هذه الحكمة فى خطة العطف واللين التى اتبعها مع المصريين . فتهلل قلب الأنبا ميخائيل الأول لذلك ، وبادله

---

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ٧٠ - ٧١

الزيارات . وامتلأ قلب حسان اعجاباً بالبابا الاسكندرى إلى حد جعله يتخذه مستشاراً له . ولما كان الأنبا مويسيس من الملازمين للأنبا ميخائيل الأول ، فقد توطدت بين الوالى حسان وبين هذا الأسقف القديس أواصر الصداقة . وقد سعد الجميع بهذه الألفة التى ربطت بينهم فقصد حسان إلى أوسيم حيث قضى ثلاث سنين ليكون على مقربة من الأنبا مويسيس ويستشيره فى جلائل الأمور ويسترشد بآرائه فى ادارة شئون البلاد .

وفى هذه الفترة التى تنفس فيها المصريون الصعداء ازدادات حدة التوتر بين الأمراء لتزايد المنافسة فوجد الخليفة نفسه عاجزاً عن حفظ النظام واضطر إلى فرض سلطته بحد السيف . ثم استتب الأمر فى النهاية لمروان ، على أنه لم يجد من وسيلة للاحتفاظ بمركزه غير القوة فاستبدّ بالأمراء والولاة قبل أن يستبدّ بالشعوب .

مروان يتقلد الخلافة والخلقيدونيون يتلاعبون

وقد عاود الخلقيدونيون مؤامرتهم فى تلك الأثناء فقدموا هدايا نفيسة من الذهب والفضة والحديد للخليفة ونجحوا فى اقامة أسقف لهم على الاسكندرية . ولما فازوا بهذا النصر رفعوا طلباً إلى مروان ادعوا فيه بأن كنيسة مارمينا بمريوط ملك لهم لا للقبط . غير أن هذا الطلب الثانى لم يلق

الترحيب الذى قوبلت به رسامة الأسقف لأن هذا الخليفة أمرهم بالمثول بين يديه فى حضرة الأنبا ميخائيل الأول ليعلن كل من الطرفين ما لديه من الحجج التى تثبت حقه فى ملكية هذه الكنيسة .

النزاع حول ملكية كنيسة مارمينا

وما أن عرف البابا الاسكندرى رغبة الخليفة حتى غادر الاسكندرية على الفور واستقل مركباً إلى الفسطاط . ولما وصل إلى أوسيم انضم إليه أسقفها الأنبا موسيس يصحبه عدد من الكهنة والأراخنة . ثم استقبل الأنبا ثيئودورس أسقف بابلون الركب البابوى عند وصوله إلى الفسطاط ، وذهب الجميع معاً إلى دار الخلافة حيث تناقشوا مع الخلقيدونيين فى حضرة الخليفة مروان . وبعد نقاش دام عدة أيام طلب الخليفة إلى كل من الفريقين أن يقدم مستنداته كتابة . وعلى أثر ذلك عقد الأنبا ميخائيل الأول مجمعاً من أساقفة الكرازة المرقسية وأراختتها . وبعد أن تداولوا معاً كتب البابا الاسكندرى رسالةً مملوءة نعمة وحكمة قال فيها : « من ميخائيل - بنعمة اللهَ أسقف الاسكندرية وبابا للشعب الثيئودوسى ، إلى أولى الأمر - إنه فى عهد الأميرين التقيين هونوريوس وأركاديوس ، وفى أثناء باباوية الأنبا ثيئوفيلس البابا الاسكندرى الثالث والعشرين ، قد بدئ بتشييد كنيسة مارمينا العجائبى . لأن هذا البابا الجليل كان

ولوعاً بالفن المعمارى شغوفاً باقامة بيوت العبادة ليهيئ للناس أسباب التقرب الى الله تعالى . فبدأ فى بناء هذه الكنيسة ، وأتم بناءها الأنبا تيموثيئوس الثانى البابا الاسكندرى السادس والعشرون فى عهد الأمبراطور زينون الذى حاول أن يكفر عن سيئات سلفه الامبراطور مرقيانوس باغداق العطايا على الأديرة والكنائس . وكان مرقيانوس هذا قد أمر بعقد مجمع خلقيدون وتجنى فيه على الأنبا ديسقورس البابا الاسكندرى الخامس والعشرين ، وأمر بنفيه ، ثم أمعن فى تعذيب الشعب القبطى المخلص لعقيدته الأرثوذكسية ولباباه البطل المنفى المفترى عليه ، ومذاك حاول الخلقيدونيون أن يبطشوا بالقبط بكل وسيلة ، واستمر بطشهم بنا إلى أن آل الملك إلى العرب بعد سقوط الامبرطورية البيزنطية سنة ٦٤١ م . وإننا - حتى هذه الساعة - نصرّ على عدم الاعتراف بمجمع خلقيدون ونجهر ببطلان قراراته ، كما نؤكد ثقتنا فى الأنبا ديسقورس الذى تحمل النفى والتشريد دون أن يتزحزح عن إيمانه الأرثوذكسى قيد أنمله » .

أما الخلقيدونيون فكتبوا مذكرة موجزة .ثم قدم كل من الطرفين رسالته إلى عيسى رئيس الديوان الذى كان منوطاً به النظر فى أمر هذا النزاع . على أن هذا الرئيس ألقى بالرسالتين فى الدرج ولم يعط جواباً مدة شهر كامل . وبازاء هذا التلكؤ أخذ بعض القبط يتساءلون عن السبب ، وخامرهم

الشك فى أن عيسى رئيس الديوان قد عطل الحكم فى هذا الموضوع ليأخذ رشوة . وحين ساورتهم هذه الشكوك اعترفوا بها للأنبا مويسيس ، فأجابهم هذا الأسقف القديس قائلاً : « ليس من اللائق أن يتقدم مثلنا برشوة . ونحن لم نضطر إلى الانتظار عشرة سنين ، ولا حتى سنة ، كما اضطر آباؤنا فى مختلف المناسبات ، فنحن نعيش فى بيوتنا ونصلى فى كنائسنا ، وليس بيننا من اضطره الظلم إلى الهرب أو إلى الصلاة فى رحاب الصحراء فلنصبر إذن ، ولننتظر ، لأن الله تعالى لن يتركنا ولن يتخلى عنا » .

ولقداستجاب الآب السماوى لثقة الأنبا مويسيس فى الأسبوع عينه ، إذ قد أصدر الخليفة مروان الأمر بعزل عيسى من الديوان وتعيين أبى الحسين مكانه . وكان ابو الحسين هذا ابناً لقاضٍ من كبار القضاة ، كما كان عادلاً حكيماً فاستهل عمله بقراءة التقريرين المرفوعين من القبط والخلقيدونيين . وبعد أن قرأهما اطلع الوالى عليهما واتفق كلاهما على أحقية القبط بملكية الكنيسة . وعندها خرج أبو الحسين من دار الولاية وأرسل فى طلب الطرفين المتنازعين وما أن مثل الجميع بين يديه حتى التفت إلى الخلقيدونى الدخيل وقال له : « إن تقريرك يثبت أن لا إله لك ولا دين ، وأن الكنيسة ملك القبط فإن شئت فاكتب تقريراً ثانياً . فلما أحسوا الخلقيدونيون بأن قضيتهم خاسرة بعثوا إلى الأنبا ميخائيل

الأول والأنبا مويسيس وبقية الأساقفة الأرثوذكسيين طالبين الانضمام إلى الكنيسة القبطية . على أن البابا الاسكندرى رأى أن يمتحنهم أولاً ، ووافقه الأنبا مويسيس على رأيه وبعد مداولات ثبت للمجمع الاسكندرى أن هؤلاء الخلقيدونيين منافقون لا يبغون غير الاستيلاء على كنيسة مارمينا ، فرفض طلبهم .

وحدث بعد ذلك بأيام أن أرسل أبو الحسين فى طلب القبط والخلقيدونيين مرة ثانية ليفصل فى أمر النزاع القائم حول كنيسة مارمينا . فجاء إليه الأنبا ميخائيل الأول بنفسه يصحبه عدد من الأساقفة . فلما استقر بهم المقام التفت أبو الحسين إلى البابا المرقسى وقال له : « أتقسم بالله العلى أن هذه الكنيسة ملك لك ولآبائك من قبلك ؟ » أجابه رجل الله على الفور : « إن دينى ينهانى عن القسم ويأمرنى أن أقول الصدق مهما كلفنى قوله » . فالتفت القاضى إذ ذاك إلى الخلقيدونى الدخيل وسأله : « أتقسم بأن الكنيسة ملك لك ؟ » أجابه بلا تردد : « نعم . إنى على أتم استعداد لأن أقسم . وما كاد أبو الحسين يسمع هذه الكلمات حتى هز رأسه ساخراً ثم وجه الخطاب إلى الأنبا ميخائيل الأول قائلاً : « أين شهودك ؟ » أجابه البابا المرقسى : « لقد شيد الأنبا ثيئوفيلس هذه الكنيسة وزينها باثنى عشر عاموداً نقش اسمه على كل عامود منها . ثم أكمل الأنبا ثيموثيئوس البناء

ونقش اسمه على أحدى جدرانه . فشهودى لديك هم أسلافى الأماجد » . فلما سمع أبو الحسين هذه الكلمات بعث برسله فوراً إلى كنيسة مارمينا ليتحققوا مما قاله البابا الاسكندرى الجليل . فلم يلبث هؤلاء الرسل أن عادوا وأقروا بصحة أقوال هذا البابا الوقور أمام أبى الحسين والمجتمعين معه . فما كان من هذا القاضى المنصف وإلا أن أمر بتسليم كنيسة مارمينا للأنبا ميخائيل الأول مهنئاً إياه على تمسكه بالحق . فخرج هو وصحبه من دار الولاية معززين مكرمين [1] .

شدة وضيق بعد فترة السلام

ولكن فترة السلام كانت قصيرة الأمد ، لأن الأمراء عاودوا منافساتهم ، إذ كان كل واحد منهم يتنازع مع غيره أملاً فى أن يظفر بالخلافة . على أن مروان ظل قابضاً على صولجان الحكم عن طريق الفتك والارهاب . وأصدر أمراً إلى واليه فى مصر بمضاعفة الضرائب والتشدد فى جبايتها ، توهماً منه أن مثل هذا الاستبداد يضعف من عزيمة المصريين فيمنعهم من القيام بثورة عليه . وقد غالى الوالى فى تنفيذ أوامر مروان فطالب القبط بدفع مبالغ باهظة . ولما لم يستطع الأنبا ميخائيل الأول أن يدفعها أمر الوالى بالقائه فى السجن ،

---

(١) تاريخ البطاركة - مخطوط نقله القمص شنوده الصوامعى البرموسى من النسخة المحفوظة بديره ص ١٤٦ - ١٥٢ .

ووضع طوق من حديد حول عنقه ، وربط كتلة ثقيلة من الخشب إلى كل من قدميه . كذلك أمر الوالى بطرح الأنبامويسيس أسقف أوسيم والأنبا ثيئودورس أسقف بابلون وايلياس تلميذ الأنبا مويسيس في السجن ، ولو أنه لم يكبلهم بالحديد والخشب كما فعل بالأنبا ميخائيل الأول .

السجن الذى القى فيه البابا الاسكندرى

وكان السجن الذى ألقى فيه البابا الاسكندرى وصحبه مغارة منحوته فى صخرة ، وليس بها فتحة واحدة تسمح ببصيص من النور أو نفحة من الهواء ومع أن هذه المغارة كانت عديمة النور والهواء إلا أن الوالى رمى فيها بعدد غير قليل من الناس . وحين علم بعض المسجونين بأن الخليفة المرقسى سجين معهم أنبهم ضميرهم وامتلأوا ندماً فاستعطفوه أن يصلى من أجلهم ويحلهم من خطاياهم .وقد امتلأ قلب رجل الله عطفاً وحناناً على هؤلاء البائسين النادمين ، فأخذ يكلمهم فى رقة وعذوبة.وبعد أن عزّى قلوبهم الكسيرة منحهم بركته [1] .

أما الأسقفان المسجونان مع البابا المرقسى فقد كرسا وقتهما فى السجن لخدمة باباهم الصبور . ولم يستطع أحدهم أن يغير ملابسه مدى سبعة عشر يوماً.ومع أنهما لم يكبّلا بالقيود إلا

---

(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية للأنبا ساويرس بن المنفع أسقف الأشمونين (طبعة ايفتس) جـ ٣ ص ١٣٤ - ١٣٦ .

أنهما كانا يحسّان بثقل هذه القيود كأنهما مقيدان مع باباهما .

رجل مؤمن يجلس على مائدة الملك

وحدث أن عُين رجل مؤمن مشرفاً على مائدة الملك ، واستطاع أن يحظى برضاه فانتهز هذه الفرصة ليتشفع فى البابا السجين ، ونال الإذن فى أن يزوره ويحضر له ما يحتاج من طعام وملابس [1] .

رحلة الأنبا ميخائيل الى الصعيد

وبعد انقضاء شهر من الزمان ، والأنبا ميخائيل الأول وزملاؤه مصروحين فى هذه المغارة الضيقة الحالكة الظلام ، استحضرهم الوالى وطالبهم بدفع الجزية المفروضة عليهم .

---

(١) مخطوط رقم ٢٨٧ تاريخ كنسى ، غير كامل ، محفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس ، ورد على ص II (105) النص التالى :« .... واعتقل البطريرك ووضع فى عنقه طوق حديد وألقى فى السجن شهراً كاملاً ومعه ثلاثمائة رجل ونساء أيضاً وكان المرضى يأتون إلى باب السجن فيبارك عليهم البطريرك فيبرأون حتى المسلمين والبربر منهم وكان على مائدة الملك رجل مؤمن خير يهتم بالأب البطرك ويفتقدنا ويجيب لنا فى السجن ما نحتاج إليه وكانت كورة مصر قد هلك أهلها من الظلم والخسائر والخراج .

فأجابه الخليفة المرقسى : « إننى لا أملك شيئاً ، فإن كان لابد من دفعها فاسمحوا لى بأن أطوف الصعيد لأجمع من أبنائى ما يمكننى جمعه » . فحسن هذا الكلام فى عينى الوالى ، ومن ثم استقل الأنبا ميخائيل الأول مركباً سارت به جنوباً . وكان كلما رست المركب فى مكان ما - ينزل البابا المرقسى ومن معه ويزورون الأهالى . وحيثما سمع الشعب أن باباهم قادم أليهم هُرعوا لاستقباله . وبعد أن يقضى معهم يوماً أو أكثر يتركهم للذهاب إلى بلد آخر . وقد أظهر القبط ولاءهم وتقديرهم لراعيهم الأول بأن قدموا له كل ما يمكنهم من مال . وحينما كانوا يسمعون أنه قضى ثلاثين يوماً فى السجن مكبلاً بالقيود كانوا يزدادون اعجاباً به وقد أفاض الله نعمته على هذا البابا الصبور فمنحه قوة الشفاء . فكان يشفق على مرضى شعبه ويشفيهم بالنعمة الالهية المتدفقة خلاله . وهكذا امتلأت قلوب أهل الصعيد بهجة وصفاء .

حدوث زلزال يوم ان عاد الانبا ميخائيل

وقد عاد الأنبا ميخائيل الأول من رحلته فى الحادى والعشرين من طوبة (٢٨ يناير) . وكان هذا اليوم الذى وصل فيه إلى الفسطاط يوم رعب وفزع [١] . فقد زلزلت

---

(١) حدث زلزال سنة ٧٥٠ م وأغلب الظن أنه هو الذى حدث فى هذه الفترة .

الأرض زلزالاً عنيفاً أسقط عدداً وفيراً من البيوت كما أغرق عدداً من المراكب . وحينما واجه البابا المرقسى هذه الثورة الطبيعية المزعجة دعا شعبه إلى الصلاة . فتوجه الجميع إلى الله ضارعين إليه أن يقيهم شر هذه الطبيعة الساخطة التى لم تلبث أن هدأت . ويبدو أن الزلزال قد لين قلب الوالى فقبل المبلغ الذى قدمه إليه البابا الاسكندرى دون أن يبدى شيئاً من التبرم . وما أن وجد الأنبا ميخائيل الأول نفسه حراً طليقاً حتى توجه إلى كنيسة أبى سرجة ببابلون حيث صلى القداس الالهى شكراً لله على جزيل نعمائه . وقد اشترك معه فى الصلاة جمهور كبير من القبط تسبيحاً للخالق الرحيم الذى تراءف عليهم بأن حنن قلب الوالى .

محاربة ملك النوبة لمصر

وحدث - حين كان الأنبا ميخائيل الأول معتقلاً فى السجن - أن بلغ قرياقوس ملك النوبة خبر هذا السجن فغضب غضبةً مُضَرية ، وجرد جيشه وسار على رأسه إلى مصر . وتغلب على المصريين فى الصعيد ، وتقدم نحو الفسطاط ، وحين اقترب منها بعث بأحد رجاله إلى عبد الملك بن مروان يطلب إليه الافراج عن البابا الاسكندرى . على أن عبد الملك قبض على هذا الرسول الملكى وزج به فى السجن بدلاً من

اطلاق سراح الأنبا ميخائيل الأول . فلما استبطأ الملك النوبى رسوله عاوده الغضب واستمر فى زحفه على الفسطاط . وكان النصر حليفه إذ قد تمكن من الوصول إلى البقعة التى كانت معروفة يومذاك ببركة الحبش فى ظاهر الفسطاط . وعندما خشى عبد الملك أن يدخل الملك قرياقوس عاصمته ، فأطلق سراح المندوب النوبى ثم رجا منه أن يشفع فيه لدى ملكه ويؤكد له أن الأنبا ميخائيل الأول لم يصبح حراً طليقاً فحسب بل أنه سيلقى كل تجلة واحترام .ورضى المندوب النوبى أن يتوسط عند الملك ، ولكن هذا الملك لم يقبل وساطة رسوله إذ تشكك فى حقيقة اطلاق سراح البابا الاسكندرى ، ولم يكف عن القتال إلا حين ذهب إليه البابا الجليل بنفسه ، ورجا منه أن يعود إلى بلاده فى ثقة واطمئنان [1] .

تحول قلب عبد الملك بن مروان الى الانبا ميخائيل

ولقد كان لوساطة الأنبا ميخائيل الأول أكبر الأثر فى نفس

---

(١) تاريخ مصر فى القرون الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پوول طبعة لندن سنة ١٩٣٦ ص ٢٧ ، تاريخ بطاركة الاسكندرية لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين جـ ٣ ص ١٤٤ - ١٤٥ ، مصر من مينا إلى فؤاد الأول (بالفرنسية) للأب دى هينو ص ٢٠٧ ، كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا لزاهر رياض ص ١٦٦

عبد الملك بن مروان إذ قد امتلأ قلبه حباً للبابا الاسكندرى وتقديراً له ، وبالتالى أحس بعطف كبير على المسيحيين . واعتاد بعد ذلك أن يزور الأنبا ميخائيل الأول وأساقفته ويستشيرهم فى جلائل الأمور .

شخصية الانبا ميخائيل

ولقد كان البابا ميخائيل الأول عذب الحديث ذا وجه باسم وضاء وقامة معتدلة ، هادئاً وقوراً . وكان تعليمه كالسيف القاطع للمبتدعين وكالملح لذوى الإيمان المستقيم . وكانت يد الرب معه أينما سار وحيثما حل . وقد تهلل قلبه لما طرأ على عبد الملك من تغيير ، فقضى وقته فى تشييد الكنائس التى تهدمت وفى تثبيت القلوب التى وهنت [1] .

ثورة القبط ثم هزيمتهم

على أن السلام لم يدم أمده لأن الخليفة مروان أقام ابنه الثانى (المدعو مروان أيضاً) قائداً للجيش . وانتهز عامل الخراج الفرصة فضاعف الجزية على القبط وشدد عليهم الخناق إلى حد جعلهم يثورون عليه ثورة عارمة اتخذت شكل حرب نظامية . وكان قائد الجيش القبطى فى تلك الحرب يؤنس

---

(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية لساويرس بن المقفع..... جـ ٣ ص ١٤٨

السمنودى . وقد دامت هذه الحرب عدة أيام انتهت بهزيمة القبط نتيجة لخيانة أحدهم [1] . فقد تملك الحسد قلب هذا الخائن فجاء إلى مروان بن مروان ليلاً وأعلمه بالمكان الذى أقيمت فيه خيمة يؤنس السمنودى . فسار جند مروان فى حلك الظلام خلف هذا الرجل الحسود إلى أن بلغوا خيمة القائد يؤنس ودخلوها خلسة وقتلوه وهو نائم . وما أن قتلوه حتى دقوا طبول النصر . فصحا الجند القبط ووجدوا جند مروان محيطين بهم من كل جانب ، وعلموا أن قائدهم قد قتل غدراً . ولكنهم - رغم هذا - لم يسلموا ، وظلوا يقاتلون إلى أن غلبوا على أمرهم نهائياً . فكانت المعركة فى هذه الليلة الأخيرة أشبه بمذبحة هائلة منها بحرب نظامية ، راح ضحيتها مئات الرجال من القبط حتى لم يخلو بيت من قتيل أو جريح أو سجين .

نار الحرب والثورة تندلع فى كافة البلاد

وقد دارت رحى هذه الحرب الأهلية فى الأونة التى كانت الدولة الأموية على وشك أن تلفظ آخر أنفاسها . فقد قضى مروان على كرسى الخلافة سنين سبعاً : قضاها شاهراً السلاح

---

(١) تاريخ مصر الاسلامية لالياس الأيوبى طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٢ ص ٩٦ ؛ القول الأبريزى للعلامة المقريزى ص ٥١

فى وجه كل منافسيه . وكانت بوادر الثورة قد أخذت فى الظهور بعد انقضاء هذه السنين السبع . فانتهز امبراطور القسطنطينية - قسطنطين الخامس - فرصة تأجج نيران الثورة فى جميع أركان الدولة الأموية وزحف بجيشه على آسيا الصغرى . وهكذا أصبح مروان بين نارين نار الثورة الثورة التى أشعلها عليه قومه ونار الغزو من الامبراطورية القسطنطينية على الحدود الشمالية لسوريا [1] . وفى هذه الفترة المليئة بالثورات والقلاقل والأحزاب المتنافرة ظهر خصم جديد لم يكن فى الحسبان - فقد رفع أبو مسلم العلم الأسود الذى للعباسيين . وكان سياسياً لبقاً فتمكن من توحيد القبائل المتخاصمة تحت رايته وسار على رأس هذه القبائل نحو الولايات الخاضعة للدولة الأموية ونجح أبو مسلم فى قهر الولايات الواحدة تلو الأخرى دون أن يحاول الخليفة مروان نجدتها . ثم بعث له أحد ولاته برسالة أبلغه فيها أنه جالس فوق بركان ثائر وختم رسالته هذه بقوله : « ترى أين هم بنو أمية ؟ أنيام هم أم مستيقظون ؟ » وقد حفزت هذه الرسالة مروان إلى إرسال نجدة على الفور . ولكن القوة التى أرسلها

---

(١) الخلافة : ازدهارها وانحلالها فسقوطها (بالانجليزية) للسير وليم موير طبع فى أدلبرج سنة ١٩١٥ ص ٤٠٩ - ٤١٦ ، ٤٢٣

لم تكن كافية لصد القوات الزاحفة عليها . فقرر الخليفة أن ينزل الميدان بنفسه - ولكنه نزل بعد فوات الأوان . فقد قامت مملكته على الاستبداد والحكم بالسيف ، مما زاد عدد خصومه والساعين إلى اسقاطه . فتداعت الأرض من تحته حالما ظهر خطر العباسيين . وتلفت مروان يمنة ويسرة فوجد حصونه تتداعى الواحد تلو الآخر . ولم يجد أمامه سبيلاً غير الالتجاء إلى مصر فراراً من وجه خصومه وتوهماً منه أنه يستطيع أن يستجمع قواه فى وادى النيل ويكر على الزاحفين عليه ويغلبهم . فلما وصل إلى مصر وجدها فى حالة اضطراب وفوضى : فالسجون كانت غاصّة بالقبط الذين سقطوا أسرى بعد مقتل قائدهم يؤنس السمنودى وعزيمتهم النكراء . وفوق هذا فقد رأى البشموريون أن يشقوا عصا الطاعة بدورهم ولكنهم رأوا أن يقوموا بحرب العصابات بدلاً من الحرب النظامية لسيتطيعوا أن يفتّوا فى عضد جند الوالى . وكان رئيس البشموريين الثائرين واحداً منهم واسمه مينا بن بقيرة فكان يخرج هو ورجاله ليلاً يقتلون وينهبون ويشيعون الفزع بين الجند المربوطين فى حدود مديريتهم . ثم يختبئون فى النهار متحصنين خلف الترع والمستنقعات التى تكتنف أراضيهم والتى لا يعرف مخاضاتها غيرهم . وقد رأى مروان - بإزا حرج موقفه من القوات الموالية لأبى العباس - أن يلج

لمفاوضة البشموريين بدلاً من الاستمرار فى محاربتهم . ولكنهم رفضوا المفاوضة وأصروا على القتال[1] .

القاء الأنبا ميخائيل فى السجن مرة ثانية

وكأن كل هذه الثورات والحروب لم تكن كافية لتنذر الخليفة مروان بقرب انهيار عرشه ، فزاد عليها قيام والى الاسكندرية بالثورة ضده أيضاً واعلان استقلاله بحكم هذه المدينة . فضاق مروان ذرعاً بهذه النيران المشتعلة حوله من كل جانب ، ولم يجد بداً من ارسال حوثره أكثر قواده بطشاً لقمع الثورة فى الاسكندرية . فقهر حوثره الجيش الاسكندرى ، وفتك بالأهالى فتكاً ذريعاً . وفى سورة غضبه ألقى القبض على الأنبا ميخائيل الأول وزعماء القبط . وفرض عليهم أداء مبلغ ضخم من المال . فلما عجزوا عن أدائه عنّفهم على الثورة التى قام بها البشموريون تعنيفاً شديداً ، وألقاهم جميعاً فى السجن بعد أن كبل قدمى البابا الاسكندرى بالحديد كما أمر بضربه . ثم خطر فى بال حوثره أنه إن تمادى فى التنكيل بالأنبا ميخائيل الأول فقد يتمادى البشموريون فى قتالهم ضد جند مروان . ففك قيوده واقتاده إلى رشيد . ومن

---

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب، نخلة روفيلة س ٧٦-٧٧ .

هناك استكتب البابا الاسكندرى خطاباً إلى البشموريين
وقفهم فيه على كل ما أصابه ولامهم على تماديهم
سى العدوان . وحين قرأ هؤلاء الثوار خطاب باباهم
حتدم غضبهم فضاعفوا هجماتهم على جند الوالى [1] .

اقتراب جند ابى مسلم ووضع الآبا ميخائيل تحت الحراسة

وبينما كان مروان متشاغلاً بالعمل على قمع ثورة
لبشموريين وتمرد والى الاسكندرية بلغه أن أبا مسلم وجنده -
من الخراسانيين [2] - قد اجتازوا الحدود المصرية . وعندما
بعث برسول عاجل إلى حوثره يستدعيه للعودة إلى الفسطاط
على الفور ، كما بعث برسول آخر إلى جنوده الذين يقاتلون
لبشموريين يستدعيهم أيضاً . ولقد أوصى الجميع بأن ينهبوا
ويسلبوا كل ما تصل أيديهم وأن يشعلوا النيران فى كل
الأماكن التى يغادرونها . وكانت هذه الأوامر نتيجة لما أحس به
مروان من خطر داهم .

وحين وصل رسول الخليفة إلى حوثرة استدعى هذا

---

(١) تاريخ البطاركة - مخطوط بقلم القمص شنودة الصوامعى الهرموسى
عن النسخة المحفوظة بدير الهرموس جـ ١ ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) خراسان هى بلد شاسعة تقع شرقى إيران وإلى الغرب من الهند ،
وتقع الصحراء الفارسية إلى الجنوب الشرقى منها

القائد الغشوم ظابطاً يثق فيه الثقة كلها وأمره أن يوصل الأنبا ميخائيل الأول وصحبه إلى الفسطاط . فرأى هذا الضابط أن يعود بهم الى العاصمة عن طريق النيل تجنباً لما قد يتعرض له من خطر الثوار . وعندها سارع سكرتير البابا الاسكندرى إلى أوسيم ليطلع أسقفها الأنبا مويسيس على ما جرى . وبينما كان الرجلان يتشاوران مرت بهما المركب التى تقلّ الأنبا ميخائيل الأول ورجاله فانضم إليهم الأنبا مويسيس قائلاً :«من شاء أن ينال اكليل الشهادة فليتبعنى لأن هذا هو اليوم الذى طالما تمنيته ، ولو أنى أحسب نفسى غير أهل لأن أسفك دمى على اسم ذاك الذى سفك دمه الزكى على عود الصليب من أجل خلاصى». كذلك انضم إليهم سكرتير البابا المرقسى وقارئ من دير الأنبامكارى الكبير ورجل من بلبيس .

امر مروان باشعال النار فى الفسطاط

وأدرك مروان أن الأمور تأزّمت للغاية إذ بدأ العدو يزحف من الحدود المصرية إلى داخل البلاد . فأمر عازف البوق أن يعلن أهل الفسطاط بوجوب اخلاء المدينة لأنه قرر اشعال النار فيها بعد ثلاثة أيام . وإن من لم يخرج من هذه المدينة بعد الأيام الثلاثة المحددة سيأمر مروان بقتله قبل احراق العاصمة . وما أن أخذ عازف البوق يعلن أهالى الفسطاط بوجوب اخلاء

المدينة حتى تملكهم الفزع . فخرجت جموعهم على غير هدى متجهة نحو الجيزة والجزيرة . وكانوا يتزاحمون على المراكب الراسية على شاطئ النيل ويتدافعون بغير وعى فغرق العدد العديد منهم . كذلك تناسى الناس - فى رعبهم المرضى والمقعدين والمكفوفين فتركوهم لمصيرهم . وحين تفقد مروان الفسطاط بعد الأيام الثلاثة التى حددها لم يجد غير هؤلاء العاجزين فلم يشفق عليهم بل أمر باشعال النار فى المدينة وهم فيها فراحوا جميعاً ضحية اللهيب المتقد .

اضطرار زحف العباسيين واصرار مروان على اعتقال البابا المرقسى

وحالما انتهى مروان من حرق الفسطاط ركب مركباً واجتاز النيل إلى ضفته الغربية ليكون فى مأمن من أعدائه . على أنه رغم اضطراره إلى الهرب وإلى محاولة استجماع قواه لملاقاة خصومة قد ظل على بطشه واستبداده . فأمر بعض جنوده بأن يحرسوا الأنبا ميخائيل الأول وصحبه ولا يسمحوا لهم بالخروج ، وأن يسيروا بهم حيثما سار هو ، ويضعوهم تحت الحراسة المشددة على مقربة من المكان الذى ينصب هو فيه خيامه .

وفي مساء التاسع عشر من أبيب (٢٦ يوليو) وصلت طلائع الخراسانيين إلى الضفة الشرقية للنيل فى الجهة المقابلة للمنطقة التى أقام فيها مروان خيامه . ولم تكن هناك جسور

فى تلك المنطقة كما أنه لم يخطر ببال الزاحفين أن يدخلوا البلاد عن طريق النهر فلم تكن مراكبهم الحربية معهم . وهكذا تجابه الخصمان دون أن يستطيع أحدهما مقاتلة الآخر لأن النهر الخالد كان فاصلاً بينهما .

أحد رجال البلاط يستثير حفيظة مروان ضد هذا البابا الجليل

وفى اليوم التالى أمر مروان باستدعاء الأنبا ميخائيل الأول وأتباعه لأن أحد رجلال البلاط كان قد استثار حفيظته ضد البابا الاسكندرى بأن همس فى أذنه : « أتعرف أن هذا البابا قد قال لقومه « استبشروا فسينزع الله المملكة عن مروان ويعطيها لخصومه ، » ولما مثل رجل الله وصحبه بين يدى الخليفة مروان أمر هذا الطاغية أتباعه بأن يهينوهم علناً وهم وقوف على ضفة النيل على مرأى من الجيشين ومسمعهما . إلى حد أنه أمر بنتف لحية البابا وبعدما أوسعهم الجند هزء وسخرية أمر مروان بترك البابا المرقسى في العراء تحت أشعة الشمس اللافحة . وكان هذا الحكم جائراً يومذاك لأن شمس مصر فى شهر يوليو محرقة على أنهم تحملوا قيظ الشمس بثبات عجيب كما تحملوا الاستخفاف والازدراء فى هدوء وسكينة .

شفاعة ابن مروان فى البابا المرقسى وصحبه

وفى صبيحة اليوم الثالث وصل عدد من الأساقفة والرهبان إلى حيث يقيم الأنبا ميخائيل الأول - جاءوا من شيهيت للاستفسار عن حالة باباهم ومشاركته آلامه . وتصادف أن وصلوا قبل انبثاق الفجر . وما كاد الظلام ينقشع وتبدده أشعة الشمس المشرقة حتى جاء السيّاف إلى الخيمة التى يقيم فيها الأنبا ميخائيل الأول ، وأمسك بيده قائلاً : « إن الخليفة يريد رؤيته بمفرده » ولكن الأنبا مويسيس لم يعجبه هذا الأمر ، فوقف إلى جانب باباه قائلاً : « حى هو الرب إنى لن افترق عن أبى الروحى إذ قد آليت على نفسى أن أتبعه حيثما سار » وبينما كان السياف يحاول اقناع هذا الأسقف بوجوب العدول عن قراره ، دخل الخيمة رسول ثانٍ من رسل مروان وأعلن بأن الخليفة يريد أن يرى الأنبا ميخائيل الأول ومن معه . فذهبوا إليه جميعاً . وما أن رآهم مروان حتى سلمهم إلى ضابط اسمه يزيد معروف بقسوته . فأخذ هذا الضابط يجهز آلات التعذيب إذ لم يكن استقر رأيه بعد على طريقة قتلهم . وفى تلك الساعة تقدم الأنبا مويسيس راجياً من البابا الاسكندرى

أن يصلى على رأسه صلاة التحليل [1] . عملاً بما يقتضيه الطقس القبطى . ومن ثم أخذ الجميع يصلّون بعضهم لأجل البعض وقال شبابهم لشيوخهم : « متى وجدتم نعمة عند الرب فاذكرونا » وكان هذا أيضاً عند ضفة النهر الخالد على مرأى الجيشين ومسمعهما . وكان لصلوات هؤلاء الشهداء (بغير سفك دم) أثر بعيد جعل عدداً من المسلمين المحيطين بهم يبكون شفقة عليهم وعندها تقدم عبيد الله الابن الأكبر لمروان وأخذ يستعطف أباه عنهم قائلاً : « تمهّل يا أبى قبل أن تمس هؤلاء الرجال بأذى فنحن الآن فى ضيق عظيم ، وقد نضطر للهرب إلى السودان ، والسودانيون أولاد روحيون لهذا الشيخ الوقور . فلو أنك قتلته أو ألحقت به الأذى فإن السودانيون سيرفضون حتماً ايواءنا ، بل قد يعمدون إلى الأخذ بثأره منا » . وقد اقتنع مروان بمنطق ابنه فأمر يزيد أن يرجع عن قتلهم واكتفى بحبسهم . فساقهم يزيد إلى زنزانة خلف ثلاثة أبواب حيث الظلام دامس والهواء خانق . وفى هذا الحبس الضيق تكلم الأنبا ميخائيل الأول بكلمات العزاء الممتلئة نعمة.

---

(١) هى الصلاة التى يتلوها الكاهن على المؤمن ليحله من خطيئة ، ويقرأها الأسقف على الكاهن ، والبابا على الأسقف .

« وكانت كلماته أشبه بأنغام قيثارة عذبة ، بينما انطلقت نسمة الحياة من فمه وهو يسبح الله تعالى بتسابيح روحية ويواظب على الصوم والصلاة [1] . أما الأنبا موسيس فقد تنبأ قائلاً : « لن يقتلونا ولكنا سنظل محبوسين حتى يموت مروان » .

ابن قسطس وعنايته بالأنبا ميخائيل

وكان بين كبار القبط المدنيين رجل اسمه ابن قسطس ، وكان هذا الرجل باراً يخاف الله ويحب الناس ، وقد توّج هذه الصفات بالشجاعة . فهاله أن يكون البابا الاسكندرى ومن معه فى ضيق شديد دون أن يعنى أحد بأمرهم ، وأخذ على عاتقه أن يخدمهم بنفسه . فكان يزورهم يومياً فى السجن ويحمل إليهم ما يحتاجون إليه [2] .

---

(١) تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين طبعة ايليتس جـ ٣ ص ١٨٠ .

(٢) تاريخ البطاركة مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن النسخة المحفوظة بدير البرموس جـ ١ ص ١٧١ .

جند مروان يمعنون فى القتل والسلب

وظل الجيشان فى مجابهة أحدهما الآخر أياماً عديدة . وفى تلك الأثناء أطلق مروان لجنده العنان ، فانشغلوا بالقتل والسلب واشعال النار فى البيوت والحقول . ولم تقتصر اعمال العنف التى تمادوا فيها على المنطقة التى كان مروان قد نصب خيامه فيها ، بل امتد إلى أقصى الصعيد فذاق المصريون الأهوال على أيدى الجند . وقد ضاعف هؤلاء الجند تنكيلهم بالرهبان والراهبات ، وأمعنوا فى احراق الأديرة [1] . وفى

---

(١) راجع ما أورده ستانلى لاين پوول فى كتابه « تاريخ مصر فى العصور الوسطى » (بالانجليزية) ص ٢٧ - ٢٨ نقلاً عن أبى صالح الأرمنى . ويجدر القول هنا بأن المؤرخين اكتشفوا أخيراً أن الكتاب الذى نسبه من سبقهم إلى أبى صالح هو فى حقيقة الأمر من نتاج أبى المكارم القبطى الذى عاش فى القرن الثانى عشر . ويرجع الخطأ إلى أن النسخة الأولى التى عثر عليها الباحثون كانت تنقصها الورقة الأولى . وكانت جلدة هذه النسخة تحمل اسم أبى صالح - أى أنها كانت ملكاً له - وبما أنه لم يوجد أى أسم آخر على هذه النسخة الأولى فقد درج الكتاب على نسبتها إلى أبى صالح . ثم شاء الله أن يعثر الباحثون على نسخ أخرى عرفوا منها أن المؤلف هو أبو المكارم القبطى .

وسط هذه الآلام المريرة اتجهت القلوب والعيون إلى رب السماء ليتراءف على الشعب المصرى المعذب ولسان حالهم يردد كلمات صاحب المزمور حيث قال : « تأملت عن اليمين وأبصرت فلم يكن من يعرفنى . ضاع المهرب منى ولم يوجد من يطلب نفسى فصرخت إليك يا رب وقلت أنت هو رجائى وحظى فى أرض الأحياء ..... [1] أو ذلك البيت من الشعر الذى ارتفع به أحمد شوقى (أمير الشعراء) إلى المولى تعالى قائلاً :

« سُدت علىّ مذاهبى ومسالكى إلاإليك فما عساى أصنع »

ومن العجيب أن يسترسل مروان فى هذه الأعمال التى لا تؤدى إلا إلى كراهية الناس له فى الوقت الذى كان أعداؤه يتربصون به . فلم يكن بمستغرب أن يحاول المصريون - فى ضيقتهم وفى استنجادهم بالله تعالى - القضاء على هذا الخليفة الغاشم . وكان مروان قد أقام حراسة على مخاضات النهر الخالد ، ورغم هذه الحراسة فقد قام من بين الأهالى من أرشد الخراسانيين سراً إلى مواضع المخاضات . وحين عرف الخراسانيون هذه

---

(١) عن مزمور ١٤١ فى الأجبية و١٤٢ فى الكتاب المقدس .

المواضع قسموا جيشهم إلى أربعة أقسام لكى يضمنوا النصر .

مروان يهرب فيفتح المسلمون باب السجن للأنبا ميخائيل وصحبه

وفى التاسع والعشرين من شهر أبيب خاض الخراسانيون النيل وانتقلت جيوشهم من ضفته الشرقية إلى ضفته الغربية

فلما رآهم مروان قادمين نحوه ورأى جموعهم تفوق جموعه عداً امتلأ رعباً فسارع إلى الهرب متجهاً جنوباً نحو صعيد مصر . ولشدة ما أصابه من الرعب ، ولرغبته فى سرعة الهرب نسى أن الأنبا ميخائيل الأول وصحبه لا يزالون مطروحين فى السجن . وقد أراد أن يباعد الشقة بينه وبين خصومه فأشعل النيران فى النزهات (بالجيزة) قبل أن يتراجع مع جنده عن مواقعهم .على أن أهالى الجيزة تمكنوا من اطفاء الحريق بسرعة حالما ابتعد مروان عنهم . كذلك انتظر بعض المسلمين حتى مغيب الشمس ليتأكدوا من أن مروان لن يعود ثانية إليهم ثم فتحوا باب السجن الذى كان يقيم البابا المرقسى وصحبه . ولم يكتفوا باطلاق سراحهم بل ساروا معهم حتى أوصلوهم إلى دار الأنبا بطرس أسقف الجيزة . وفى الطريق

انضم إليهم جمهور من القبط . وكان ذلك فى ليلة الأحد الأول من شهر مسرى المبارك [1] .

مقتل مروان وهرب ولديه وعودة بناته إلى حاران

وكان لمروان عن بدء القتال ثمانية آلاف جندى لم يبق منهم غير أربعمائة . فازداد خوفاً من أن يظفر به أعداؤه ، واستمر يتقهقر جنوباً والخراسانيون يتعقبونه . فلما خشى أن يقع فى أسرهم لجأ إلى الكنيسة القائمة فى بلدة أبى صير [2] حيث اختبأ داخل حرمها . على أن بعض جنده خانه وأفشى سرمكمنه . فدخل عليه نفر من الخراسانيين وقتلوه . أما ولداه

---

(١) وهى الليلة السابقة لبدء الصوم المعروف بصوم السيدة العذراء وينتهى فى ١٦ مسرى (٢٢أوغسطس) وهو اليوم الذى تعيد فيه الكنيسة بذكرى حمل الملائكة جسد والدة الاله إلى السماء .

(٢) هناك خمسة بلدان تحمل هذا الاسم وهى : ا- أبو صير المحطة (أبو حماد) بمديرية الشرقية ، ب - أبو صير الجيزة ، جـ - أبو صير الملق بالواسطى ، د - أبو صير دفنو باطا الفيوم ، هـ - أبو صير سمنود . وبما أن مروان هرب جنوباً فأباصير التى أختبأ فى كنيستها لا يمكن إلا أن تكون تلك التى فى الواسطى أو التى فى الفيوم ويقال أيضاً أنها فى الجيزة .

فهربا إلى الحبشة (اثيوبيا) حيث قتل الأهالى أحدهما بينما تمكن الثانى من الالتجاء إلى فلسطين . وهناك قضى بضع سنين اقتيد بعدها إلى الخليفة المهدى الذى أكرم وفادته وسمح له أن يعيش فى قصره . أما بنات مروان فكن قد أختبأن فى كنيسة غير تلك التى أختبأ فيها أبوهن . على أن أحد أتباعهن خان العهد هو أيضاً وأرشد الخراسانيين إلى موضع اختبائهن فأخذهن الأعداء خان العهد هو أيضاً وأرشد الخراسانيين إلى موضع اختبائهن . فأخذهن الأعداء عنوةً إلى الأمير صالح أخى الخليفة العباسى . وكانت كبراهن فصيحة لا تنقصها الشجاعة ، فشفعت فى أخواتها ونجحت فى الحصول على حريتهن . وعندها ذهبن كلهن إلى حاران مسقط رؤوسهن حيث عشن فى سلام بقية أيام حياتهن .

قيام الدولة العباسية وتسرب القلق إلى النفوس

وبسقوط مروان انتقلت الخلافة من بنى أمية إلى بنى العباس ، فتحولت العاصمة من دمشق إلى الكوفة فبغداد [1] . أما الخراسانيون الذين عاونوا أبا العباس على

---

(١) « الخلافة : ازدهارها وانحلالها فسقوطها » (بالانجليزية) للسير وليم موير طبع فى أدنبرج سنة ١٩١٥ ص ٤٣٠ - ٤٣١ .

النصر فقد اتصلوا بالأنبا ميخائيل الأول وأكرموه كل الاكرام وكانت التجارب قد صقلته فزادته حكمة وحنكة . وفى تلك الفترة تمكن من أن يعيد بناء الكنائس التى تهدمت وأن يستعيد أموالها المبددة . وقد أحسن الخراسانيون إلى البشموريين كذلك بأن أعفوهم من الجزية كما منحوهم الهبات المالية الوفيرة .

وقد عاود الهدوء الحياة المصرية ، إلا أنه كان هدوءاً مؤقتاً للغاية ذلك لأن العباسيين - رغم عملهم على اقرار الأمن - اتبعوا سياسة تبديل الولاة بسرعة خشية أن ينجح أحدهم فى استمالة القلوب إليه فتسول له نفسه الاستقلال بالبلد الذى ولىّ أمره [1] . وقد تسرب القلق والاضطراب إلى القلوب نتيجة لهذه السياسة إذ قد جعلت الشعور بعدم الاستقرار يسود الجميع . ومما زاد الطين بلة أن هؤلاء الولاة - لادراكهم أن مدة ولايتهم قصيرة - كانوا ينصرفون إلى جمع المال بشتى الوسائل حتى يغتنوا قبل عزلهم . وبالطبع كانت أسهل وسائلهم مضاعفة الضرائب وبخاصة على القبط . وبعد أن ساد السلام

---

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لابن بوول ص ٣٠ .

سنتين كاملتين واجه القبط ضغطاً جديداً . لأن الولاة لم يتشددوا معهم في جمع الجزية وفى المطالبة بمقادير باهظة من المال فحسب ولكنهم جعلوا العفو قاعدة التعامل لمن ينكر دينه أيضاً . وقد أدت هذه الخطة الاستبدادية إلى أن يعلن عدد من القبط اعتناقهم الاسلام . فهال الأنبا ميخائيل الأول الأمر ، وتوجع قلبه ، فذهب لمقابلة الوالى وذكّره بالعهد الذى كان قائد الخراسانيين قد عاهده إياه عند انتصاره على مروان . فأجابه الوالى بأن الخليفة قد بعث بأوامر مشددة فى فرض الجزية الباهظة والحصول عليها بكافة الوسائل لأن أحد رجال بلاطه قد نجح فى اقناعه بأنه إن اتبع سياسة اللين مع القبط فسيثورون عليه . على أن مثل هذا العذر لم ينطل على البابا الاسكندرى فاستعان بالأنبا موسيس على التفاوض مع كتبة الديوان . وبعد مفاوضات دامت شهراً كاملاً نجح هذان الحبران الصبوران فى تخفيض الجزية المفروضة .

ابو عون الوالى الجديد يحسن معاملة القبط

ولقد رأى الله تعالى - فى شامل عدله - أن يكافئ الأنبا ميخائيل الأول على جهاده الشاق المتواصل فهيأ له الفرصة المواتية إذ قد صدر أمر الخليفة بتعيين رجل اسمه أبى عون والياً على مصر . وكان أبو عون هذا رجلاً منصفاً اتخذ حسن المعاملة خطة يسير بموجبها . فتنفس القبط الصعداء

ومجدوا الله تعالى الذى أقام عليهم هذا الوالى العادل . وانتهز الأنبا ميخائيل الأول فرصة السلام فقام برحلة راعوية . ومرة أخرى - ضمن عشرات المرات - تلاقى الشعب براعيه فى ظل السلام بعد انقضاء فترة الظلم والاستبداد . اذ كانت خطة الباباوات الاسكندريين القيام بمثل هذه الرحلات الراعوية كى يراهم الشعب مستمتعين بالحرية والسلام بعدما جازوا الأهوال والآلام ليزدادوا يقيناً بأن مراحم الآب السماوى لابد متداركة إياهم إن عاجلاً أو آجلاً . وقد تهلل قلب الأنبا ميخائيل الأول إذ رأى النعمة الالهية فائضة على أبنائه الرهبان إلى حد جعلت البعض منهم يتنبأ والبعض الآخر يشفى الأمراض [1] .

ابو عون يغير مقر عاصمته

وقد غير أبو عون مقر عاصمته بأن بنى ضاحيّة جديدة للفسطاط فى منطقة تعرف باسم الحمراء القصوى عرفت فيما بعد باسم العسكر . وقد تضمنت هذه الضاحية الجديدة مساكن الوزراء والحرس الملكى ، وكانت متصلة بالفسطاط عن طريق الضواحى الأخرى المجاورة لها [2] .

---

(١) تاريخ البطاركة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن النسخة المحفوظة بدير البرموس جـ ١ ص - ١٧٧ .

(٢) تاريخ مصر في العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بوول ص ٣٠ - ٣١

اسقف حاران يطمع فى بطريركية انطاكية

وحدث أن ظل الكرسى الأنطاكى شاغراً مدة من الزمن بسبب الأحداث السياسية . فاشتهى اسحق أسقف حاران أن يحظى بشرف اعتلائه وكان أسحق هذا على صلة وثيقة بالملك عبدالله أبى جعفر لان الله جل اسمه كان قد رزق هذا الملك ابناً بصلاته . وكان عبد الله مقيماً بحاران فى تلك الفترة . فاستعان اسحق بعبد الله ليحقق أمنيته . فلم يكتف هذا الملك بتعضيد اسحق فيما يرجوه ، ولكنه قتل أسقفين عارضاه فى رغبته قائلين له : « إنك أسقف ، وما دمت قد نلت هذه الكرامة وجب عليك الخضوع للقوانين الرسولية القاضية بأن لا يترك اسقف ايبارشيته لغيرها . كذلك نهى الرسل عن أخذ كرامة الكهنوت من يد السلطان . ألا تعلم أن من يقدم على هذا العمل يستحق الحرم ؟ »

هذا الاسقف يبعث برسالة الشركة مصحوبة بهدايا ثمينة وتهديد صريح

ولما فاز الأسقف اسحق بالكرسى الأنطاكى أراد أن يعزز مركزه فبعث برسالة الشركة إلى الأنبا ميخائيل الأول مصحوبة بهدايا ثمينة . وسلم الرسالة والهدايا إلى أسقفى دمشق وحمص مشفوعة بتهديد للبابا الاسكندرى بأنه إن رفض

الشركة فعليه المثول بين يدى عبد الله فى حاران لتأدية الحساب عن رفضه .

ولما وصل رسل الأسقف اسحق إلى الفسطاط قصدوا لفورهم إلى أبى عون والى مصر . فلما علم أبو عون بمضمون الرسالة التى يحملها رسل الأسقف الأنطاكى بعث فى طلب الأنبا ميخائيل الأول الذى حضر إلى دار الولاية . فأطلعه أبو عون على الرسالة راجياً منه أن يستجيب لطلب الأسقف اسحق . فطلب إليه البابا الاسكندرى أن يمهله ثلاثة أيام كى يعقد مجمعاً من أساقفته للتشاور معهم فى الأمر . ولبى الوالى طلبه على الفور .

خطاب الانبا ميخائيل وثيقة مجد وبسالة

وبعث الأنبا ميخائيل بالدعوة الى أساقفته فلبوها جميعاً . كذلك دعا الأسقفين الأنطاكيين فقبلا الدعوة أيضاً . وظل المجمع يوالى جلساته شهراً كاملاً ، والوالى لا يضايق أحداً ولا يحاول أن يذكرّ البابا الاسكندرى بأنه لم يطلب غير ثلاثة أيام للرد عليه . وفى مطلع الشهر الثانى اجتمع الأساقفة فى كنيسة السيدة العذراء (الشهيرة بالمعلقة) ببابلون حيث دعاهم البابا المرقسى ليبلغهم قراره النهائى فى هذا الموضوع الخطير : موضوع انتقال أسقف من ايبارشيته إلى أخرى . أم

قراره فقد سجله فى الخطاب الذى كان ينوى ارساله الى الأسـقف اسحق مع مندوبيه ، والذى يُعد وثيقةً تاريخية مجيدة ، وهذا نصه : « ولا السيف ولا النار ولا الرمى للأسد ولا النفى ولا هذه كلها مجتمعة تخيفنى . لن أرضى بعمل غير قانونى . ولن أدخل نفسى تحت حرمى الذى كتبته بخط يدى والذى أعلنت فيه أنـه لا يجوز لأسقف أن يصير بطريركاً . ولقد حرم آباؤنا المكرمون كل من يأخذ الكهنوت من يد السلطان . فإن الأساقفة كانوا قد كتبوا إلىّ من أنطاكية فى أيام يوحنا البطريرك أن كل من جلس بعده من المطارنة على السدة البطريركيـة يكون محروماً . وقد وقّعت بامضـائى على قرارهم هذا . فكيف أحرم نفسى الآن ؟ وكيف أبرر اليوم ما حرمته بالأمس ؟ بل كيف أعترف الآن بما أنكرته من قبل ؟ وإن الآباء المكرمين أنفسـهم قد حرموا كل من يسلك هذا المسلك » . وقد سلّم الأنبا ميخائيل الأول خطابه هذا إلى الأسقفين المنتدبين من الأسقف اسحق .

استعداد الانبا ميخائيل للسفر إلى حاران

فعاد رسولا الأسقف اسحق إلى أبى عون والى مصر و طلبا إليه أن يكلف البابا الاسكندرى بالذهاب معهما إلى حاران . وكان أبو عون يحب الأنبا ميخائيل حباً جعله يخشى عليه

المخاطر . فاختلى به ورجا منه أن يخضع لحكم عبد الله أبى الجعفر والأساقفة الموالين له . ومما يجدر ذكره تقديراً لهذا الوالى العادل ، أنه مع الحاحه على البابا المرقسى بالموافقة ، فقد ترك له مطلق الحرية فى الذهاب أو البقاء فى مصر تبعاً لرغبته . ولقد شكر الأنبا ميخائيل الأول أبا عون على ما أبداه من عطفٍ ومودة ، ولكنه صارحه بعزمه على التمسك برأيه . ثم خرج مع صحبه من الأساقفة والأراخنة . ولازمهم رسولا الأسقف الأنطاكى وهما يلحان فى طلب الرد . فأفهمهما البابا الاسكندرى أنه سيسافر معهما إلى حاران . ثم التفت إلى الأنبا مويسيس وسأله : « أتسافر معى ؟ » أجابه : « نعم فقد عاهدت نفسى أن ألازمك حيثما ذهبت » . وهنا أعلن الأنبا ثيئودورس أسقف بابلون عن رغبته فى الذهاب معهما أيضاً . وعندما طلب الأنبا ميخائيل الأول إلى سكرتيره أن يهيئ لهم كل ما يلزمهم للسفر فنفذ السكرتير طلب بابا الجليل ولما أكمل اعداد كل شئ وكان هؤلاء الأحبار الكرا على أهبة السفر إذا برسول قد وصل إلى الفسطاط معلنا انتقال الأسقف اسحق إلى رحمة مولاه . وعند ذاك بادر الرسل الأنطاكيون بالعودة إلى بلادهم فى سكون ، كما ظل الأنب ميخائيل الأول وأساقفته فى مصر مستريحى الضمائر .

استتباب السلام ونياحة البابا الاسكندرى

وقد ساد السلام ربوع مصر فى السنوات الأخيرة لباباوية الأنبا ميخائيل الأول ، إذ قد رأى الآب السماوى فى شامل محبته أن يكافئ هذا الأب الجليل على كل الخدمات التى أداها والآلام التى احتملها . وكانت التجارب والمحن التى جازها قد أثرت على صحته كما أثر عليه كرّ الأيام ومر الليالى . فانتقل إلى عالم النور بعد أن قاد سفينة الكنيسة المقدسة ثلاثاً وعشرين سنة ونصف تبعاً لما ورد فى المخطوط المحفوظ فى مكتبة دير الأنبا مكارى الكبير ، ودفن جثمانه الطاهر بكل اكرام وتجلة مع أجداث الآباء القديسين . بركة صلواتهم جميعاً تكون معنا إلى النفس الأخير آمين [1] .

---

(١) للاطلاع على تفاصيل الأحداث التى جرت فى تلك الفترة الحاسمة وعلى سيرة الأنبا ميخائيل الأول راجع تاريخ بطاركة الأسكندرية للأنبا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين (طبعة ايفيتس) جـ٣ ص٨٨ - ٢١٥

الناشـــر

المراسلات : ص ب ١٧
الابراهيمية - اسكندرية

ص
٣٥